أفواه اولئك الذين تقولوا على السنة انه دخل فيها الغريب عنها اذ قد طال العهد عليها وتناولتها عصور الجهالة وبعثرت منها أحن الزمان وطوارئ الحدثان فنحن نقدم لهم دليلا بيناً وبرهاناً ساطعاً أن السنة خدمها المسلمون خدمة جليلة لم تعهد لدى أمة من الامم ولا في ملة من الملل وان ذلك كان ديدن المسلمين في كل عصر فلم يغفلوها فترة من الزمن حتى يعبث بها أولو الاغراض، وينال منها ذوو الالحاد، بل لازالت محفوظة من يد العابثين، مخدومة من جهابذة المحدثين، فلهم الكلمة على المتقولين، والثناء من عامة المسلمين

الخيال في الشعر العربي

٣

حال المعنى والتخييل

قد يصوغ الشاعر المعنى لاول الخطاب في صورة خيالية فلا يدركه الا من صفت قريحته ورقت حاشية ألمعيته ككثير من الاشعار الواردة على طريق الممثلات والالغاز أو من سبق اليه ما يهديه الى المراد ويساعده على فهمه من قرينة حال أو مقال كبعض المحاورات التي يقصد فيها المتخاطبان الى اخفاء الغرض وكتمه عمن يصغي الى حديثهم أو يطلع على رسائلهم

وقد يصرح بالمعنى ثم يدخل به في طريق التخييل وهذا اما ان يخرج الصريح بالتخييل فيفصل المعنى ويضع بازاء كل قطعة منه صورة خيالية كما قال العتابي يصف السحاب

والغيم كالثوب في الآفاق منتشر ... من فوقه طبق من تحته طبق
تظنه مصمتا لا فتق فيه فان ... سالت عزاليه قلت الثوب منفتق
ان مسه الرعد فيه قلت منخرق ... أو لألأ البرق فيه قلت محترق

مثل الغيم الضارب في الافق بالثوب المنشور ثم أخذ يقرن كل حال من أحواله بما يقابلها من أحوال الثوب فجعل امساكه عن المطر مظنة الصحة والمتانة، وانسكاب الغيث من خلاله منبئا بتفتقه، ومعمعة الرعد اعلانا بانخراقه، ووميض البرق شظايا من

الذهب تؤذن باحتراقه، واما ان يستوفي المعنى بالصراحة ثم يأتي بمثاله الخيالي متواصل الاجزاء وهذا كقول بعضهم

رأيتكم تبدون للحرب عدة ولا يمنع الاسلاب منكم مقاتل
فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ولا يمنع الخراف ما هو حامل

استقصى المعنى الصريح وهو تظاهرهم بالاهبة للحرب وقعودهم عن قتال عدوهم وافتكاك ماسلب من حقوقهم، ثم ضرب له المثل على نسق واحد بالنخل يشرع نصالا مسنونة من الشوك كالمتأهب للذود بها عما يحمل من الثمار فيعمد الخراف لها ويجتنيها بأجمعها دون أن يناله ذلك الشوك بأذى

ومن أبدع ماجاء على هذا النمط قول ابن رشيق القيرواني

رجوتك للامر المهم وفي يدي بقايا امني النفس فيها الاماني
وساوفت لي الايام حتى اذا انقضت أواخر ما عندي قطعت رجائيا
وكنت كأني نازف البئر طالبا لاجمامها أو يرجع الماء صافيا
فلا هو أبقى ما أصاب لنفسه ولا هي أعطته الذي كان راجيا

وإما ان يصرح لك بالمحل الذي يجعله مناطا للحديث عنه ثم يسوق القول كله على طريق التخييل كقول بعضهم

اني واياك كالصادي رأى نهلا ودونه هوة يخشى بها التلفا
رأى بعينيه ماء هز مورده وليس يملك دون الماء منصرفا

فقد أراك أول الشعر انه يريد الحديث عن حاله مع المخاطب ثم اطرد في مجال التخييل الذي أفاد به اذ الحاجة تحثه على القرب منه، والخطر المتعرض في سبيله ينصح له بالاحجام عنه. ومن أبدع الوصف المنسوج على هذا المثال قول شرف الدين التيفاشي

أما ترى الارض من زلزالها عجبا تدعو الى طاعة الرحمن كل تقي
أضحت كوالدة خرقاء مرضعة أولادها در ثدي حاذق غدق
قد مهدتهم مهادا غير مضطرب وأفرشتهم فراشا غير ما قلق
حتى اذا أبصرت بعض الذي كرهت مما يشق من الاولاد من خلق

هزت بهم مهدهم شيئا فنبههم ثم استثارت وآل الطبع للغرق
فصكت المهد غضبى وهي لافظة بعضا على بعضهم من شدة الغرق

اسباب جودة الخيال

لا مشاحة ان النفوس تختلف بفطرتها في صحة الذوق وقوة التذكر فيكون من أسباب التفاوت في جودة الخيال ما هو عائد الى الفطرة، والغرض في هذا المقام انما هو البحث عن الامور التي تؤثر في جودة الخيال وتبسط في نطاقه من خارج، ومدارها على أمرين

(أحدهما) تردد النظر في مظاهر المدنية فان امتلاء حافظة الشاعر من المناظر المختلفة والصور التي لا تدخل تحت حصر تجعله أغزر مادة حتى اذا عرض له معنى اقتضى الحال ايراده في طريقة الخيال لا يعوزه في التفت الى حافظته ان يلاقيه منها ما يساعده على العمل بسهولة، ثم انه لغزارة مادته وسعة مجاله تكون مخيلته أكثر عملا في انشاء المباني وابداعها، وكثرة العمل مما تترشح به هذه القوة النفسية فيكون صاحبها أقدر على صناعة التخيل وأرسخ فيها ممن كانت بضاعته مزجاة وحافظته في املاق

ومن جهة ان غزارة المادة تساعد على كثرة العمل الذي هو الابداع، وكثرة العمل تقوى بها النفس في صناعة التخيل أمكن للشاعر المدني أن يفوق الشاعر البدوي أو القروي في تخيل معان اشتركوا في العلم بالعناصر التي تنتزع منها الصور الخيالية

يبلغ تأثير المدنية في تهذيب المخيلة الى ان يكون الفرق بين عملها في حال البداوة وعملها بعد ان تمحض صاحبها الحضارة أوضح من نار على علم، فهذا علي ابن الجهم الشهير قال للخليفة

انت كالكلب في حفاظك للعهـ ـد وكالتيس في مراعي الخطوب

هو الذي يقول

فقلن لنا نحن الاهلة اذا نغبي لمن يأوي البنا ولا نقري

بيد انه قال البيت الاول أيام كان يسكن البادية وقال البيت الثاني بعد ما نزل بغداد وتراصف في حافظته من الصور والمباني مارنت به حاشية طبعه وجعل قريحته تنسج من المعاني البديعة بروداً ضافية

(ثانيهما) الحرية اذ لاشبهة ان الاستبداد الاعمى يطبع الناس على الجبن ويلقي في أفئدتهم رهبة تحملهم على ان يجعلوا بينهم وبين الاقوال التي تسخط لها الحكومة القاسية حاجزا لايبدونون منه ، فيضيق بذلك مجال الشاعر وربما تنكب الخوض في الاجتماعيات، حذر الوقوع في السياسيات ، ومن ذا ينكر ان الخيال الذي يسخره صاحبه في كل غرض ويطلق له العنان في كل حلبة يكون أبعد مرمى وأحكم ضبطا من خيال الشاعر الذي حصرته السياسة في دائرة ورسمت له خطة لايقوتها ، ولقد كنت أعرف أناسا شبوا تحت سلطة تكره للاديب أن يفتح لهاته في الاحوال السياسية فصرفوا معظم حياتهم في التردد على الغزل والمديح والرثاء وفاضت عليهم قرائحهم في هذه الاغراض بمعان رائقة ولما سمح الوقت بالكلام في مقاصد اجتماعية أو سياسية وقف بهم الخيال في عقبة كؤود أو أتوا بها في نسج واه وهيأة متخاذلة

فالخيال حر في عمله لاتملك السلطة المستبدة مرده ولكنها تمنعه من ان يتجول على مراكب الالسنة والاقلام وهذا مايثبط الشاعر عن اطلاق خياله للعمل ولا يرخي له العنان الا في أغراض يسمه الحال لان يخاطب بها الناس نطقا أو كتابة

فذانك سببان لان يكون الخيال بديع الصنع في كل غرض يتوجه اليه ، وههنا أمر آخر اذا اتفق للشاعر حال تصديه للنظم في غرض يكون له أثر جلي في سهولة التخيل وبعد الرمية الى المعاني الغامضة وهو الاحساس والتأثر

فمن الشعراء من يتكلم عن مشاهدة وتأثر نفسي كأن يرى البطل يلقي بنفسه في مواقع الخطوب أو العالم كيف يتدفق بالحكمة البالغة أو الجواد كيف يبسط يده بالنوال فيشعر باعظامه ويأخذ في مديحه وتمجيده ، ويرى الجبان كيف تصفر أنامله من ذكر الحرب أو الجاهل كيف يتمضمض باللغو أو الباطل، أو البخيل كيف يشد على الدينار رباطا فوق رباط فيشعر في نفسه بمهانته ويتصدى لهجائه. ويموت من يعز عليه من قريب أو صديق أو استاذ فيشعر بالتفجع والاسف عليه وتتفجر قريحته برثائه. ويحل بصديقه فاجعة فيحس بالاشفاق عليه فيأخذ في تسليته وتهوين وقعها عليه بالعزاء الجميل . ويدخل الروضة النيحاء فيتمتع بمرأى أزهارها وتاخين بلابلها فيهب في صدره ابتهاج وانس ويسترسل في وصفها وذكر مارافه من مشاهدها

ومن الشعراء من يسوقه الى الشعر باعث طمع أو خوف أو حياء ومن الجلي ان الاحساس والتأثر مما يفتح أمام الخيال طرقاً قلما يصير بها من يحمل نفسه على الشعر المجرد الطمع أو الخوف أو الحياء فانظر ان شئت مثلا الى قصيدة أبي الحسن الانباري التي يقول في مطلعها

هلو في الحياة وفي الممات لحق أنت احدى المعجزات

فتجد فيها تخيلات فائقة ، والذي ساعده على ذلك فيما أحسب انه أنشأها من تفجع واعظام بالغ لانه رثى فيها الوزير ابن بقية يوم قتله عضد الدولة مصلوباً ، فنظمه لها — وهو لا يرتجي من وراثها فائدة بل يوجس في نفسه الخيفة من أن يناله عضد الدولة بالعقوبة عليها — يشعر بأن الباعث له على انشائها التلهف والاخلاص

ولو نظرت الى القصائد التي يخاطب بها الشعراء الملوك تهنئة بانتصار أو فتح وقسها بالقصائد التي يخاطبونهم بها تهنئة بعيد مثلا أو بمولود أو بناء قصر لوجدت الاولى أجود خيالا لان انتصار الدولة مما يسر في نفوس الامة فرحا ويثير فيها عاطفة اجلال لمن جرى النصر على يده وليست الثانية بهذه المكانة اذ طلوع العيد على الامير وازدياد ولد له أو تشييده لقصر لا تهتز له نفس الشاعر حتى تطير به في جو الخيال، ويقتنص ما يلذه الذوق من بدائع الافكار وانظر ان رمت الوثوق بهذا الى قصيدة أبي تمام التي يهنىء فيها المعتصم بفتح عمورية

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فانه ذهب بمعانيها مذاهب خيالية لا تطلع له على ما يحاكيها في القصائد التي لم يستفزه لها غير ما يرجوه من النوال

وكذلك الشاعر الذي يريد أن يتبرأ من جناية تعزى اليه أو يحاول أن يزيل ما في نفس السلطان من ضغينة أو نية سيئة فانه يبتكر من المعاني ما لا يبتكره في القصائد التي يمدحه بها وهو مقبل عليه

وربما يخوض الشاعر في غرض انما دعاه اليه مجاراة غيره ومباراته في مضمار البيان فيبلغ مبلغ من اشاقوا اليه عن احساس وعاطفة نفسية ويقع على تخيلات جيدة ولكن أمثال هذه التخيلات تنال على ذي التأثر النفسي بدون تعسف حينما يحتاج

الآخر الى أن يحث اليها قريحته ويجاذبها وهي كالمعاصية عنه

بماذا يفضل التخييل ؟

عرف مما سبق ان التخييل يدور على انتقاء مواد متفرقة في الملفظة ثم تأليفها وابرازها في صورة جديدة ، فيرجع فضله والبراعة فيه الى ثلاث مزايا

احداها أن يكون وجه المناسبة بين تلك الجواهر — أعني المواد المؤلفة منها صورة المعنى — غامضا ، فزية من يتخيل الكواكب أزهارا ناسمة في روضة ناضرة دون مزية من يقول

وضوء الشهب فوق الليل باد كاطراف الاسنة في الدروع

فان المشابهة بين الكواكب والازهار لاتغيب عن كثير من الناس أما التشابه بين النجوم وبين أطراف الاسنة اللامعة عند نفرذها في الدروع لا يحوم عليه الا خيال بارع

ولافضل لمن يرى الشمعة فيحاكيها بالرمح اذا قسته بمن ينظر اليها فيقول

كأنها عمر الفتى والنار فيها كالاجل

فان محاكاتها بالرمح لا تكاد تخفى على ذي بصر وانما الخيال الفائق هو الذي ينتقل منها الى العمر والاجل حيث يشعر بالمناسبة الدقيقة بينهما وهو ان الاجل يدنو من الانسان حيناً فحيناً ويتقاضى عمره رويداً رويداً الى أن تتقلص عنه أشعة الحياة كلهيب الفتيلة يدب في جسم الشمعة وينتقصها قليلا قليلا الى أن يأتي على آخرها وتذهب في الجو هباء منثوراً

ثانيتها — أن يكون التخييل مبنياً على ملاحظة أمور متعددة فالصورة التي يراعى في تأليفها ثلاثة معان مثلا تكون أرجح وزناً وأنفس قيمة من الصورة التي تبنى على رعاية معنيين فمن الشعراء من يصور لك الرمح شهاباً ثاقباً فهل يحق لك أن تساويه بمن يخيله لك ورؤوس الاعداء منصوبة على طرفه بالغصن يوم يكون مكللا بالثمار كما قال ابن عمار يخاطب المعتصم صاحب المرية

أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا

يقف الناس في تصوير الحرب بمعنى الرحى عند قولهم دارت رحى الحرب وكان عمرو بن كلثوم أبسطهم في هذا التخييل باعاً حيث يقول في وصف الحرب

متى تنقل الى قوم رحاها يكونوا في اللقاء لها طحينا

يكون تفاهما شرقي نجد ولهوتها قضاعة أجمعينا

فالتفال ما يبسط تحت الرحى ليتساقط عليه الدقيق واللهوة القبضة من الحب تلقى في فم الرحى لتطحنها وقضاعة هي القبيلة التي يهددها هذا الشاعر بالحرب الطاحنة، وكأني به عند ماحضر في نفسه معنى الحرب انساق اليه معنى الرحى لما بينهما من التشابه المعهود ثم تنقل نظره من الرحى الى ما هو من خواصها فوقع على التفال واللهوة ثم انقلب الى معنى الحرب وألقى نظره الى ماحولها فتراءى له ميدانها مبسوطاً كالتفال والرجال الذين يتهافتون عليها فتتناثر رؤوسهم وتتساقط أشلاؤهم على ذلك الميدان في صورة اللهوة فصاغ الابيات على هذا الوجه الذي يدل على حسن تصرفه في ضم المعاني الى أشكالها

والادباء الذين أروك الحصى في صورة الدر ليسوا بقليل وانما المزية لمن اتسع في صورة هذا المعنى ونظر في تركيبها الى أمور متعددة فقال يصف وادياً

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث الهميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرصفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
بروع حصاه خالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

كأني بالشاعر عند ماصح فتح جفنه على الحصى وهي في ملاستها وصفاء منظرها انصرف خياله الى ما يحاكيها من الجواهر النفيسة ثم الى حال تناسقها في هيأة قلادة وتذكر بهذا موقعها من الصدر فخطرت على قلبه الفتاة وشرع يتصور كيف تنظر الى تلك الحصى فيهجم على ظنها بغتة ان قلادتها انفرطت وان ماتراه من الحصى انما هو اللؤلؤ الذي كان متناسقاً في نحرها قد تساقط الى مواطىء أقدامها فلا تمالك أن تضرب يدها على العقد حتى تحفظ البقية من السقوط أو لتتيقن صدق ظنها فتسعى الى التقاطها

ثالثتها — ان يجري الشاعر في استخلاص المعاني وتأليفها على ما يوافق الذوق السليم فهو الحافظ لنظام المعاني كما ان القواعد العربية تحفظ نظام الالفاظ، ومن الشعراء من تأخذه سنة عن هذا الشرط فيضع المعنى الخيالي على مثال تشمئز منه النفس كما أن ناسج الثياب من غزل اختلفت ألوانه اذا لم يكن صاحب ذوق فائق لم يحكم وضعها وأخرجها في صورة تقذفها العيون. ومثال هذا ان أبا القاسم بن فرناس ألف الامير محمداً أبياتاً يقول فيها

رأيت أمير المؤمنين محمداً وفي وجهه بذر المحبة يثمر

فقال له مؤمن بن سعيد : قبحاً لما ارتكبته جعلت وجه الخليفة مزرعاً تثمر فيه البذور ؛ فغشيه الخجل وجعل جوابه عن هذا النقد العائب سجابلاً . ووقع في مثل هذه الزلة كثير من كبار الشعراء فهذا أبو تمام يقول في مدح أحد الابطال

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محراثاً

فجعل ممدوحه محراثاً كما جعله هادياً حين قال

لازال يهدي بالمكارم والعلا حتى ظننا انه محموم

وهذا بشار بن برد يقول

وجذت رقاب الوصل اسياف هجرها وقدت لرجل البين نعلين من خدي

فاثبات الرقاب للوصل والرجل للبين من التخيلات المستهجنة

قد يخطر لسائل أن يقول: ان لهؤلاء الشعراء براعة مسلمة واذواقاً لا ترتاب في صحتها وصفائها ، وقد مرت هذه المعاني التي رميتموها بسبة السخافة على أذواقهم فألقت اليها بالتسليم أفلا يكون رضاهم عنها واستحسانهم لها شاهداً ببراءتها مما تدعون من مماجة الوضع ومنافرة الذوق ؟

والجواب ان القبح في هذه المعاني وما كان على شاكلتها محقق بما يجسده الانسان في نفسه من أثر الفكرة لها وعدم الانس لسماعها ، فضلا عن شهادة فريق عظيم لا تقصر بهم سلامة الذوق والمعرفة بحرفة الادب عن طبقة اولئك الشعراء . وهذا ابن رشيق يقول عقب ايراد البيت الاول من بيتي ابي تمام « فلعنة الله على المحراث ههنا ما أقبحه واركه » ولم يبق سوى النظر في عدم تنبههم لذلك القبح وكيف خفي عنهم وجهه وهو كاشف لثامه حتى لا يختلج بادراكه في بعض الابيات الادباء عن غيرهم

والوجه في هذا ان البصيرة مثل البصر والمشاهد للصورة من عيان قد يفوته ان يحدق فيها من بعض الجهات فلا يشعر بما فيها من عيب . فكذلك الشاعر قد يصوغ المعنى ولا يأخذه بالنقد من جميع أطرافه فيصير على وجه قد يبصر به من هو أضعف بصيرة منه ، والعلة في عدم تنبه الشاعر لذلك الخلل قصر المدة فيما بين انشاء القصيدة واراءتها للملأ بحيث لا يتمكن من تجريد نظره الى كل بيت ونقد معناه من سائر وجوهه

وربما أصيب الشاعر من اعتماده على براعته ومكانة سمعته ، اذ كثيراً ما يستفيد الشاعر من المقام والشهرة التي يدركها بين قومه فيتلقون شعره باستحسان فوق ما يتلقون به شعر غيره ممن لم يقم لهم صيت وان كان في نفسه أبعد أمداً وأحكم نسجاً ، فكثرة الاجادة وسمة الذكر قد تؤثر في همة الشاعر في بعض الاحيان فيلقي القصيدة على علاتها ولا يحمل نفسه على التدقيق في نقدها . ومن ثم ترى أكثر الذين يقعون في هذه العثرات انما هم الاكابر الشعراء والمكثرون منهم كأبي تمام والمتنبي ومن كان في طبقتهم

ويؤكد لك أن سيئات الشعراء في هذا الصدد انما لصقت بهم من جهة عدم تقدم المعنى بعد أن تقذفه القريحة نقداً وافياً اما لضيق الوقت أو اغتراراً بما ملكوا من البراعة وأحرزوا من الشهرة، أن أحدهم قد ترسل قريحته معنى فيقع منه موقع الاعجاب حتى اذا أعاد عليه النظر مرة ثانية انكشف له من مساويه ما يجعله في أسف على اذاعته أو في ارتياح من عدم اطلاع الناس عليه

ومن المحتمل أن يصوغ الشاعر المعنى فتأخذ جهة الحسن بقلبه مأخذاً بليغاً ثم يعثر في صورته على وجه من الخلل ولا يتمكن من تلافيه وا كمال نقصه الا برفض الصورة من أصلها ، وحيث يرى أن جهة الحسن أرجح ويرجو أن تسبل على ذلك المغمز فضل ردائها فلا يشعر به الناقدون يبقي صورة المعنى على حالها ويجيزها للرواة وهو بصير بعلتها . ولا أحال أن النابغة حين قال

نظرت اليك لحاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العود

لم يخدش عاطفته أن يضع المحبوبة بمنزلة السقيم ولكنه عز عليه أن يضرب من هذا التشبيه الذي لا يلحق شأوه وان وخزه لفظ السقيم في ضميره وخزات بالغة

الاهل والعيال

« وهو فصل من كتاب «الاخلاق والواجبات» للمغربي »

ذكرنا في الفصول السابقة واجبات الشخص منفرداً. ونريد ان نذكر في الفصول التالية واجباته مجتمعاً مع غيره من أبناء جنسه . وأول اجتماع له من هذا القبيل اجتماعه مع أهله وعياله . وأهله زوجته . وعياله أولاده . واذا كانوا أغنياء انضم اليهم خادم يكفيهم مؤونة العمل ويقال للمجموع المؤلف